# تفكيك الخطاب الكولونيالي وإسقاط الأقنعة
# -قراءة في فكر فرانز فانون-

**فاطمة ديلمي**(*)

**عنصرية الخطاب الكولونيالي:**

ارتبطت منذ بداية القرن القرن العشرين بعض العلوم خاصّة الانتولوجبا والتّحليل النّفسي، والطبّ العقلي بالحركة الكولونيالية، وهذا ما أثمر تخصّصات "علمية" جديدة، هي:الانتولوجيا الكولونيالية، والطّب العقلي الكولونيالي، فمنذ بداية القرن العشرين وإلى غاية الخمسينيات تطوّرت في الجزائر مدرسة للطبّ العقلي كانت تدعى "مدرسة الجزائر للطبّ العقلي" *l'école psychiatrique d'Alger*، برئاسة **انطوان بورو** *Antoine Porot* الذي يقول عن "**الشمال أفريقي المسلم**" *nord-africain musulman* أنّه كسول، لصّ، عرضة للسلوكات الهستيرية، والميول الانتحارية، والاجرامية، عاجز عن استيعاب المجرّدات، وإذا كان لا يخفى ما في التسمية من تعميم، فإنّ تجاهل السّياقات التاريخية الاجتماعية، والظروف الاستعمارية، وما لها من تأثير أمر واضح، بل والأدهى هو استبدالها بتفسيرات بيولوجية خلقية تتعلّق بعدم اكتمال نموّ دماغ "الأهالي"، فهم بدائيون يقعون في حالة تتوسط الأوروبي والحيوان، لأنّ "**بنية دماغ الشمال أفريقي تفسّر كسل الأهلي –مفرد الأهالي–، وعجزه الفكري والاجتماعي، واندفاعه الحيواني، والاندفاع الجنائي للشمال افريقي، مسجّل في جهازه العصبي، وهو ردّ فعل عصبي مفهوم علميا، مسجل في طبيعة الأشياء، الطبيعة البيولوجية، فعدم اتّحاد الفصّ الجبهيّ في دينامكية الدّماغ يفسّرالكسل، والجريمة والسّرقة والاغتصاب، والأكاذيب**" (Fanon, F.1970;p223).

هذا التفكير العنصري، انتشر أكثر خلال الأربعينيات من القرن العشرين، حينما ساد في أوربا الفكر النازي، آنذاك كانت النخبة الفرنسية

*- باحثة دائمة في المركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ.

المؤيدة لنظام فيشي تدعو للقضاء على المرضى، لأنّ وجودهم لا ينفع بل هو ضارّ، هذه الافكار العنصرية جميعا وجدت أرضها الخصبة في المستعمرات، فهذا الخطاب الذي ظلّ في البداية حكرا على النخبة، وحبيس بعض الأوساط النخبوية المغلقة، صار خطابا عاما في فترة الأربعينيات، وتبنته، بل شجعته الحركة الكولونيالية المسلّحة، واعتمدت عليه لتبرير أشكال العنف، والاضطهاد التي مارستها ضد "**السّكان الأصليين**"، وضدّ الحركات الثّورية بشكل خاصّ .

وعلى بعض دعاة هذه الأفكار الكولونيالية يردّ **فرانز فانون**، ففي كتابه "**بشرة سوداء وأقنعة بيضاء**" ناقش مقولات المحلّل النّفسي والاتنولوجي الفرنسي **أوكتاف مانوني** (Octave, M.1950)، و في كتابه "**المعذبون في الأرض**" قد ردّ على المحلّل النّفسي الانجليزي **كاروثرس**، الذي وضع كتابا حول أمراض الافريقي (Carothers, JC. 1954) قال فيه بدونية الرجل الاسود، خدمة للجيش الانجليزي، الذي احتاج إلى إطار موضوعي، لقمع حركة **مومو** Mau-Mau الكينية المناهضة لتواجده.

و هكذا ومع **كاروثيرس** دخل الطبّ العقلي حلبة الصراع السّياسي بشكل رسميّ، حيث بدا جليّا هذا البعد السياسي الذي ظلّ خافيا، ليمنح مشروعية علمية لاضطهاد الحركات التحررية، وتبيّن واضحا مقدار ملاءمة الطبّ العقلي لمنح إطار علمي، موضوعيّ للمعتقدات الذاتية الاستعمارية، فقد تبنى الطبّ الافكار المسبقة، والصّور النّمطية حول المستعمَرين، ومنحها الشّرعية والقداسة، يقول **فانون** بهذا الشأن أنّ المستعمَر "لم يحمل... السّلاح لأنّه كان يموت جوعا، وأنّه كان يشهد تدمير مجتمعه فحسب، وإنّما لأنّ المستعمِر كان يعتبره بالإضافة إلى ذلك دابّة، ويعامله على أنّه كذلك فعلا، وقد وفّق المستعمِر في امتصاص كراهيته، حينما استخدم التكنولوجييّن وعلماء الاجتماع، الذين كانوا يبررون مناوراته، ويضاعفون الدّراسات حول عقدة الحرمان، وعقدة العدوانية، وعقدة القابلية للاستعمار، هكذا يحقر المستعمَر، وتنتزع منه كلّ أسلحته نفسيّا، ثم يلقي إليه بالفتات لاستعادة توازن ظاهري، ومع ذلك يجد استجابة حتّى صارت الحسنات تهزه، إنّ

وعيه صار خاملا مُعتما يستجيب لأدنى شعلة، إنّ تعطّشه القديم للنّور، قد أضعفته الخرافات، وطموحاته السابقة قد تراجعت" (Fanon, F.1970; p 88).

وعليه فإن ما كتبه **فانون**، هو خطاب يقدّم أطروحات مضادّة لأطروحات **الخطاب الكولونيالي**، وعليه فإنّه خطاب مضاد للكولونيالية، ومضاد لخطابها، ومضاد لعنفهما أيضا، لذلك يرتبط بمفهوم تصفية الاستعمار، وبمفهوم العنف أيضا، وإذا كان **فانون** يشير أحيانا في هذه الكتابات إلى الرجل الأسود أو الانتيلي، فإنّ خطابه المضاد هذا، كما يؤكد عليه هو نفسه "موجه لكلّ مستعمَر حيث وجد" (Fanon, F.1952;p14)، ففي نظره "جميع أشكال الاستغلال متشابهة، تستمدّ مشروعيتها من نصوص يُضفى عليها طابع مقدس... جميع أشكال الاستغلال متطابقة، لأنّها تتعرض جميعها لشيء واحد هو الانسان، والرغبة في النظر في البنيته المجردة لهذا الاستغلال أوذاك، تعمي أنظارنا عن رؤية المشكلة الأساسية، وهي إعادة وضع الإنسان في مكانه"(Fanon, F.1952;p72).

فكتابات **فرانز فانون** إذن تندرج ضمن **مشروع** :

1. مثقف يقوم بتعرية الخطاب الاستعماري، ونزعته العنصرية القائمة على التمييز، ولقد كان هدفه المعرفي هو:

ــ الكشف عن البعد الاستعماري للخطاب "العلمي"،

ــ الكشف عن علاقة البعد الاقتصادي الاجتماعي بالاضطرابات النفسية الجمعية،

2. طبيب يبطل الآليات النفسية للاستغلال والخضوع، التي زرعها المستعمِر في المستعمَر على مدى سنوات من الاستعمار،

3. مناضل إنساني، شحذت وعيه فلسفة الأنوارمن جهة، والفكر ما بعد الحداثي من جهة أخرى، لذلك هو يؤمن بالعدالة والمساواة بين جميع البشر،

فهو اشتغل على الإنسان لا ضدّه، ففي كتابه "**بشرة سوداء وأقنعة بيضاء**" عدّد آثارالاستعمار، والعنصرية، وتحدّث عن العقد، وبيّن الأضرار النفسية للتمييز العرقي، على المستعمِر والمستعمَرعلى حدّ سواء، من خلال

دراسات أقامها على مرضى من كلا الطّرفين، أمّا في كتابه "**المعذّبون في الأرض**" فقد حلّل البنى الاجتماعية، والاقتصادية للوضعية الاستعمارية، وبيّن محاور المقاومة، كما قدّم أدوات تصفية الاستعمار.

**تفكيك الخطاب العنصري:**

**1. قابلية الاستعمار:**

أدرك **فانون** أنّ لتصفية الاستعمار محاور، تتمثل في الاشتغال على مجموعة من المفاهيم اتخذها المستعمِر مبرّرات لوجوده، وآليات لاستمراره، ومن أبرز المفاهيم التي أثارها **فرانز فانون** مفهوم "**قابلية الاستعمار**" الذي استُخدم بمعان متعددة، و في أطر ايديولوجية مختلفة، في الخطاب ما بعد الكولونيالي، إذ ناقشه **مالك بن نبي** في مختلف كتاباته، وأفرد له فصلا في كتابه "**شروط النهضة**"، كما نجده حاضرا في الخطاب الكولونيالي، وهو مفهوم مطّاطي، بما أنه وفي الخطاب الكولونيالي فإنّ قابلية الاستعمار تعني وجود استعداد نفسي مسبق لدى المستعمَر لقبول الاستعمار، فالأوربي صار سيّدا لا لأن هناك وضعا موضوعيا أتاح له ذلك فحسب، وإنّما لأنه نفسيا كان يعتقد بتفوقه وسيادته، وأنّ المستعمَر اعترف له بذلك، إذ يقول **مانوني** "لا تملك جميع الشعوب قابلية للاستعمار، فلا يتعرّض للاستعمار إلاّ من كان في حاجة إليه" ثم يقول "في كلّ مكان أنشأ فيه الأوربيون مستعمرات...كان سكانها الأصليون في انتظارهم، بل، وفي شوق لا واع إليهم" (Fanon,F.1952;p79).

والسؤال الذي طرحه **فانون:** هل هذه القابلية سابقة للاستعمارأم لاحقة له؟ ليؤكد أنّ قابلية الاستعمار هي نتيجة الاستعمار لا سببُه، والمستعمِر اتّخذ من هذه "**القابلية" مبررا، "لأنّه بحاجة لأن يصنع صورة سلبية للمستعمَر، ليمارس سلطته المطلقة عليه، أو كما قال فانون فإن المستعمِر قد صنع للمستعمِر صورة سلبية" والاستنتاج يقدّمه مساعد المحافظ -الذي صار فيما بعد محافظا- حيث قال "يجب وضع أطر صارمة لهذه الكائنات الطبيعية، التي تطيع قوانين الطبيعة طاعة عمياء، لابدّ من ترويض الطبيعة، لا إقناعِها، لابدّ من فرض "الانضباط، والاستقامة، هذه**

**الالفاظ هي الأكثراستخداما في خطاب المستعمِرين في البلدان المحتلة"** (Fanon,F.1970;p 223).

فحينما قرّر المستعمِر أنّ المستعمَر مريض عقليا، فليؤكدَ حاجته إلى راع لحمايته، ومن هنا يصير واجبا على المستعمَر التخلّي عن المناصب الحساسة، حتى لا يتسبب في الخراب، على أن يستلمها المستعمِر لأنّه وحده مؤهل لذلك، وحينما قرر أنّ المستعمَر لصّ، كاذب، تحرّكه الميول الاجرامية، والانتحارية، فهو إنما فعل ذلك ليبرر شرطته، لأنها وحدها الشرطة تستطيع حماية المتهور من تهوره وتحمي الأمن العام، وأنّ المستعمَر إذا ظل في تخلّف، فلأنه في غير حاجة إلى الرخاء، والتكنولوجيا، فلا داع اذن لأن يُمنحَ ما هو مستغن عنه، بل أنّ فرضَ الحضارة عليه أمر ضار.

وهكذا "**عندما ينظر المرء إلى كلّ الجهود التي بذلت، لتحقيق الاستلاب الثقافي، الذي ميز الحقبة الاستعمارية، يدرك أنٍ شيء حدث عشوائيا، و أنّ النتيجة العامّة المرجوّة التي كانت تسعى إليها السّيطرة الاستعمارية في الواقع، هي إقناع "الأهالي" أنّ مهمّة الاستعمار هي انتزاعهم من ظلمات الليل، وأنّ رحيله يعني بالنسبة إليهم العودة إلى حياة التوحش.**

لم يكن الاستعمار يسعى "**في مستوى اللاوعي لأن يُنظر إليه كأمّ رؤوم تحمي طفلها من الأخطار، ولكن بوصفها أمّا تمنع طفلها المنخرف باستمرار من الانتحار، والانقياد لغرائزه الشريرة، الأمّ الاستعمارية تحمي الطفل من نفسه من فيزيولوجيته، ومن بيولوجيته، ومن سوء حظه الانطولوجي**" (Fanon,F.1970;p145)، هذه الحرب النّفسية التي أراد بها المستعمِر أن يبرّر سيادته، هي التي يناهضها فانون.

**2. عقدة النقص:**

ومثلما هي قابلية الاستعمار هي سبب الاستعمار في الخطاب الكولونيالي، كذلك عقدة النقص سابقة للوضعية الاستعمارية، إذ يستند **مانوني** إلى نتائج التحليل النفسي **لفرويد** و**آدلر** ليقول "أنّ عقدة النقص

المتصلة بلون البشرة لا تلاحظ بالفعل، إلا عند الأفراد الذين يعيشون كأقلية بين أكثرية ذات لون آخر، في مجتمع متجانس إلى حد ما مثل مجتمع مدغشقر، حيث البنيات الاجتماعية لا تزال متينة جدا، لا نجد **عقدة النقص** إلا في حالات استثنائية (Fanon, F.1952;p75)، لذلك قال أنّ **عقدة النقص** إذا ظهرت عند هؤلاء **الأكثرية الملغاشية**، فهي سابقة لوجود الاستعمار.

و مرة أخرى ردّ **فانون** على محاولات الخطاب الكولونيالي لتحويل نتائج التحليل النفسي، وتعميمها ليؤكد أنّ عقدة النقص ليست شيئا موجودا قبل الاستعمار، وإنّما هو سببها"(Fanon, F.1970;p14) كما انتقد أطروحة **آدلر** حول جذور عقدة النقص، إذ أكد **فانون** أنّ "دونية الأهلي –مفرد الأهالي– تلازم استعلاء الأوروبي، فلنعترف بشجاعة، العنصرية هي التي خلقت المصاب بعقدة النقص"(Fanon, F.1970;p48).

لقد أدرك **فانون** حجم الاضطرابات التي ترتّبت عن لقاء المستعمِر، والخضوع لسياسته، التي قامت على الاستلاب، حيث أيد **مانوني** حينما وضح هدف دراسته قائلا "تكمن الفكرة المركزية في أنّ الجمع بين "**المتحضر**" و"**البدائي**" يخلق وضعا خاصا –الوضع الاستعماري– بعرض مجموعة من الأوهام، وسوء الفهم التي لا يمكن يشرحها إلاّ التّحليل النّفسي" (Fanon, F.1952 ;p 69)، ليجعل عقدة النقص فيما بعد شيئا سابقا للوضعية الاستعمارية، لأنّ هذا الوضع هو الذي يجعل "الأهالي" يستحون "من وجودهم كما قال **جان بول سارتر**، وهذا يعني حملهم على إدراك ما حَرموا أنفسهم منه من فرص" (Fanon, F.1952;p 64).

وبالإضافة إلى صدمة اللقاء، فقد كانت سياسة المستعمِر تقوم على إفقار "**الأهالي**" إفقارا منهجيا، حيث تمّ "الفصل بين الأوروبيين والأهالي إقليميا، واقتصاديا، وسياسيا، مع السماح لهم ببناء حضارة خاصة بهم، تحت إشراف وسلطة البيض، مع تقليص فرص الاتّصال بين الأعراق إلى الحد الأدنى، كما تمّ اقتراح تخصيص بعض الأراضي للأهالي، وفرض الإقامة فيها على أغلبهم، وهذا لإزالة المنافسة الاقتصادية عن فقراء البيض، وإعادة

تأهيلهم، لأنهم كانوا يشكلون 50٪ من السكان الأوروبيين" (Fanon, F.1952; p71/72).

وهذا ما أدّى إلى حرمانهم من التعليم، والتضييق عليهم في سبل المعاش، وفرض شبكة من القوانين تفشل مساعيهم، وتنشر فيهم الأفكارالمحقّرة لهم، ولقيمتهم، هذه الأوضاع خلقت سياقا يضع المستعمَر في منزلة دونية "حيث يقول **فانون** "أنّ كلّ شعب مستعمَر، أي كلّ شعب نشأت لديه عقدة النقص بسبب تدمير ثقافته الأصلية المحلية، يقف وجها لوجه أمام لغة الأمة **المحضرة** *civilisatrice* ، أي ثقافة **الميتربول**، ويكون فراره من أدغاله موفّقا بقدرامتصاصه قيمَ الميتربول الثقافية، وهكذا سيزداد بياضا كلّما رفض سوادَه، وأدغاله" (Fanon, F.1952;p15).

وهكذا يحمّل فانون مسؤلية عقدة النقص، على عاتق الحضارة الأوروبية، "فعلى عاتق ممثليها الأكثر تأهيلا، تقع مسؤولة العنصرية الاستعمارية"(Fanon, F.1952;p73).

**3. عقدة التبعية:**

عقدة **التبعية** أوالعقدة **الاصل** ***complexe originel*** حسب **مانوني**، إذ يقول أنّ "**النظرية التي نعتقد التوصل إليها هي أنّ الملغاشي يشعر اتجاه الاستعمار كالتي يشعر بها الطفل اتجاه أبيه، فهو يحتفظ بهذه الحاجة النفسية وتظهر في بنياته الاجتماعيى من خلال تقديس الأموات**" (Octave,M.1950 ;p163)، **فتقديس الأموات إذن هو علة التبعية** (Fanon, F.1952;p 88)، وعقدة التبعية هي التي تفسر قابلية المستعمَر للاستعمارفي الخطاب الكولونيالي، وفي هذا يقول **مانوني** "**الرجل الأبيض كما هو باد يطيع عقدة السلطة، أو عقدة القائد، في حين أنّ الملغاشي يخضع لعقدة التبعية، وهكذا كلّ يجد راحته**" (Fanon, F. 1952,p 80).

و ينتقد **فانون** هذه الأطروحة أيضا، حيث يؤكد مسؤولية المستعمِر في دفع المستعمَر إلى التقليد، من خلال برنامج:

- **النّزع الثقافي** الذي مرّ بمرحلتين:

**مرحلة الفوضى:** إذ أخضع المستعمِر "الأهالي" في البداية إلى نظامين ثقافيين مختلفين، فــ " بين عشية وضحاها صار للسّود نظامين مرجعيين، وكان عليهم التموقع إزاءهما" (Fanon, F. 1952,p 89).

**مرحلة التدمير:** فبعد أن وقع "الأهالي" ضحية الفوضى "تمّ تدميرعاداتهم، ومعتقداتهم، وكلّ المؤسسات التي تنظّمها، لأنّها كانت لا تلائم حضارة فُرضت عليهم، وهم لها جاهلون كلّية" (Fanon, F.1952 ;p90).

- **المثاقفة المفروضة:** إذ بعدها "قضى المستعمِرعشرون سنة، وهو يستخدم برامجه ليجعل الأسود رجلا أبيضا" (Fanon, F.1952,p175)، فقد "ابتزه في قيمة، وأصالته، موهما إياه بكونه طفيليا، مطالبا إياه بالإسراع في المشي بخطوات العالَم الأبيض" (Fanon, F.1952 ;p79)، وبقدر ما أظهر الملغاشي سلوكا مقلدا حظي بالرضى، ولكنّه إذا ما طالب بحقّه في الوجود والاختلاف، أي إذا "ما نسي مكانه، وأراد المساواة، ثار الأوروبي غضبا، وأقصى هذا الوقح، ودفع ثمن رفضه التبعيةَ شعورا بالنقص" ( Fanon, F.1952 ;p76)، وهكذا تحوّل المستعمَر إلى مقلّد، قائلا "أحاول بكل بساطة أن أصير أبيضا، وهذا يعني أنني أفرض على الأبيض الاعترافَ بإنسانيتي" (Fanon, F.1952;p79).

وقد كانت الأسباب الاقتصادية الاجتماعية، سببا آخر في إحداث الإنهاك العقلي، لأنّ السلامة الاجتماعية شرط للسلامة العقلية، فــ "من غير الواقعي أن نتوقّع أن يهضم الزّنجي، أو العربي فكرا فلسفيا، وتكون له رؤية ما للعالم، وهو لا يأكل حتّى الشّبع" (Fanon, F.1952;p78).

لهذا يروي **فانون** مشهدا من مشاهد هذا الجوع، حيث يقول "أتذكر جيدا مشهدا بشعا، حدث ذلك في وهران عام 1944، كناّ ننتظر الصعود إلى السفينة، وكان الجنود الفرنسيون يلقون قطعَ خبز لأطفال جزائريين، كانوا يتخاصمون حولها بجنون، وحقد"  (Fanon, F.1970.p 227).

**3. عقدة الحرمان:**

**عقدة الحرمان** ***complexe de frustration*** هي آلية أخرى من آليات تبرير القمع، والعنف الاستعماري، فقد فسّر **كاروثيرس** ***Carothers*** حركة **مومو** الاحتجاجية، بكونها تعبيرا عن عقدة الحرمان اللاواعية، فلقاء العالم الاوروبي خلق لدى السكّان الأصليين شعورا بالحرمان، نتيجة إعادتهم النّظر في قيمهم التقليدية، كما ولّد لديهم الرغبة في التقليد، بهدف الحصول على امتيازات الأوروبي الاجتماعية نفسها، فاحتجاج **مومو** تعبير "عن عقدة الحرمان اللاواعية، و التي يمكن تفاديها علميا، وهذا بفضل علاج نفسي" (Fanon, F.1952; 223).

فمواقف "الأهالي" المعادية للأوربيين، هي في نظر هذا الفكر الكولونيالي، وليدة الاستياء من الحرمان، وهذا ما يفسّر مشاعر **الكراهية** لديهم للحكام، ورؤساء العمل، ومن هنا اتّخذ **كاروثرس** إجراءات لإعادة إدماج **مومو**، الذين أفسدهم اختلاطهم بالبيض، وأثّرت فيهم "مدنهم الهدامة"، فاقترح إسكانهن جماعيا في منطقة خاصّة بهم، ليتمكّنوا من استرجاع حياتهم السابقة، مع التوصية بضرورة تمسيحهم لتهذيب سلوكهم.

وهكذا فإن مجال حركة "الأهالي" ضيق، فإن صمتوا فلإصابتهم بعقدة التبعية، وإن ثاروا فلإصابتهم بعقدة الحرمان، "لم يعد للملغاشي وجود لقد نسي أنه موجود، فبوصول الرجل الأبيض إلى مدغشقر ضاقت الآفاق والآليات النفسية" (Fanon, F.1952;p 79).

**الخطاب ما بعد الكولونيالي:**

**1. نظرية العنف:**

اتخذ **فانون** من التجربة الجزائرية والافريقية عموما لبناء نظرية في العنف والعدالة ، استمدها من خبرته التي اكتسبها من ممارسته الطب العقلي، فقد أدرك أنّ العنف المكبوت فى نفس الإنسان المستعمَر ما هو إلا نتيجة للعنف الذي تعرّض له منذ قرون، والذي دمر شخصيته وخرب مجتمعه، لذلك يكتب فصلا كاملا الفصل الخامس ص 215 ــ 228 في كتاب "**المعذبون الأرض**" حول "**الميول الإجرامية لأهل شمال أفريقيا**".

ولقد كانت هذه النظرية محل مزايدات، فقد اتّهم فانون بدعوة المستعمَر لأن يتحوّل إلى جلاد، لأنه قال بأنّه لا وجود لمستعمَر لم يطمح يوما في أن يحلّ محلّ المستعمَر، لذا لا بد من البحث عن السياق الذي ورد فيه هذا القول لإدراك دلالته، يقول **فانون** على لسان الأوربي "بريدون أخذ أماكننا" ثم يستأنف قائلا "حقا لم يوجد مستعمَر لم يحلم ولو مرة واحدة في اليوم لأن يجلس في مكان المستعمِر، إنّه عالم طبقي هذا العالم المجزأ إلى قسمين، يسكنهما نوعان مختلفان، إنّ ما يميز الوضع الاستعماري هو أن السياقات الاقتصادية والاجتماعية عاجزة عن إخفاء المعاناة الانسانية" (Fanon, F.1970;p 9)، وهكذا نرى أنّ ما يحلم به المستعمَرهو الخلاص، وأنّ ما يقصده **فانون** هو حاجة المستعمَر لأن تُحترم إنسانيته من خلال القضاء على نظام الاستغلال والاضطهاد.

وعليه فإنه إذا كانت تصفية الاستعمار تستلزم العنف، فلأن حياة المستعمَر مرهونة بفناء المستعمِر –لا فناء الأوربي–، بما أنّ "ظهور المستعمِر كان مزامنا لموت المجتمعات الأهلية *autochtone*، التي تعرضت لتدمير بنياتها الثقافية واضطهاد أفرادها، وعليه فإن حياة المستعمَر لا يمكن أن تظهر إلا من خلال جثة المستعمِر المتحللة ... هذا العنف ايجابي ومثمر للمستعمَر... وكل فرد هو حلقة قوية في سلسلة العنف المضاد للعنف الأول الذي مارسه المستعمِر" (Fanon, F.1952;p51).

وقد استبدل **فانون** التسميات المتعددة التي استخدمها الخطاب الكولونيالي: الشمال افريقي، الاهلي، المسلم... بتسمية تعكس عنفها و تضع المستعمِر أمام حقيقته ،إذ دعا المستعمَرين "**عبيد الأزمنة الحديثة**" ***Esclaves des temps modernes*** (Fanon, F.1952;p35)، ليؤكد أنّ المستعمَر هو سبب العنف وهو خالقه، وكل عنف من "الأهالي"، ومن حركتهم الثورية مهما بلغت شدته فهو رد فعل على العنف الأصلي، يذكر **فانون** أنّه في المستعمرات وسيلة التواصل بين المستعمِر والسكان الأصليين هو الشرطي والدركي وهي لغة عنف صرف، إذ يقول "العالم الاستعماري عالم مجزأ إلى قسمين، والخط الفاصل بينهما حددته الثكنات ومراكز الشرطة، وفي

المستعمرات سامع المستمَر والمتحدث باسم المستعمِر هو الدركي أو الجندي" (Fanon, F.1952;p7).

ثمّ توجه إلى هذا المستعمَر "**عبيد الأزمنة الحديثة**" الذي يتوهم أنّ تصفية الاستعمار تتم عبر التحرير الوطني فحسب، ليصحح اعتقاده هذا، ويؤكد له أنّ التحرير الحقيقي هو **تحرير للإنسان**، وهذا ما يجعل عملية التصفية عنيفة قائلا "إن عمليّة تصفية الاستعمار هي دائما ظاهرة عنيفة، هي تغيير **نوع espèce** من البشر بنوع آخر"(Fanon, F.1970;p5)، فهو عنف ثوري مناهض للتمييز العنصري، وطريقة عملية للتحرر من الاستعمار، لذلك هو ضرورة سياسية، والوسيلة الحقيقية لبعث الحياة في الشعوب المستعمَرة، نتيجته هي تحقيق الذات، وهذا ما يجعله حقا مشروعا.

إنّ الاستعمار مرادف للعنف السياسي، والعسكري، والثقافي، والنفسي، فهو يعمل على إدامته بواسطة الشرطة، والجيش... أي بالقوة العارمة، فقد تحولت أوربا إلى مجرد آلة لإنتاج العنف، وبالتالي لا مناص –للقضاء عليه– من اللجوء إلى عنف مماثل ومعاكس، هدفه قمع هذا العنف الأول "إنّ عمليّة تصفية الاستعمار التي تهدف لتغيير نظام العالم، هي برنامج خراب كامل، ولا يمكن أن تكون نتيجة لعملية سحرية، كما لا يمكن أن تكون ثمرة هزة طبيعية، أو نتيجة اتفاق بالتراضي" (Fanon, F.1970;p6).

فالعنف حل حتمي، لأن إمكانيات المصالحة بين المستعمر ومن المستعمر مستحيلة، بما أن مشروع كل واحد فيه هدم لمشروع الآخر، من هنا لا تكون تصفية الاستعمار ثمرة تفاوض سحري، أو تفاهم ودي، "إنّ تصفية الاستعمارهي لقاء بين قوّتين متضادّتين طبيعيا، والتي تغذيها الوضعية الاستعمارية، وأوّل لقاء بينهما تمّ في ظروف عنف، وتعايشهما: أي استغلال المستعمِر للمستَعمر صنعته الكمّامات وفوّاهات المدافع" (Fanon, F.1970;p6).

فهو صراع بين قوتين متعارضتين أساسا، إحداهما تريد استغلال الأخرى، ودفع الاستغلال لا يتطلب الاسلحة العسكرية، وإنما يتطلب إدراك

الحقائق الثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية، ولا يمكن لعمليّة تصفية الاستعمار أن تحدث دون أن يلمس آثارها أحد، لأنّها تغيّر وجود الإنسان، إنّها تحدث تغيرات جوهرية في الوجود، فبها يتحوّل المتفرّج الذي سحقته اللافاعلية إلى فاعل متميّز يقوده نور التّاريخ، فهي تحرّك الإنسان وفق وتيرتها الخاصّة التي صنعها بشر جدد، وتكسبه لغة وإنسانية جديدتين (Fanon, F.1970;p6).

**ففانون** يتحدث عن التحرير فـ "**عنف الأهالي**" هو "**عنف محرّر**" للعقل والمشاعر، هو ذلك العنف الذي يؤدي إلى لحظة يظهر فيها الآخر هينا لا قدرة له، وهي لحظة يتم فيها التحكم في العنف الذي مارسه ليصير محل تفكير، وهكذا يولد هذا الإنسان الجديد، الإنسان المتسائل.

**مستويات العنف:**

يؤكد **فانون** أنّ العالم الكولونيالى لا يبدأ بالانهيار إلا عندما يتحرر المستعمَر نفسيا وثقافيا من قيم المستعمِر، وهنا يصير العنف "**قوّة تطهيرية**" تحرّر المضطهَد الذي سحقت إرادته سنوات من التحقير بـــ "**عقدة النقص**"، وبـــ عقدة القابلية للاستعمار"وبـــ البدائية... تردّ لهم احترام الذات، وحينما يبلغ المستعمَر نقطة اللاعودة يكون قد اقترب من الانتصار ومن تصفية الاستعمار، يقول فانون "إنّ فى الكفاح المسلح شيئا يصح أن نسميه "نقطة اللا عودة" (Fanon, F.1970;p48).

وهي نقطة يتم بلوغها بالاشتغال في مستويين:

**1.1. مستوى الاشتغال على الذات:**

إنّ العنف الذي أراده **فانون** هو ذلك العنف الذي يُشفي المستعمَر من عقدة النقص(Fanon, F.1970;p 51/ 52)، ولا يتم إلا في وجود "إنسان دائم السّؤال والذي يعيد النظر بشكل كامل في الوضعية الاستعمارية" (Fanon, F.1970;p6)، "وحياة المستعمَر منذ ميلاده ضيقة مليئة بالممنوعات، ولا يمكن إعادة النظر في هذه الوضعية إلاعن طريق العنف" (Fanon, F.1970 ;p7).

ـــــــــــ يدرك كشعب أنّ :

ــ الاستقلال لم يحل بحد ذاته جميع مشاكل افريقيا فتحدث عن الوحدة وتخاذل البعض في تحقيقها، لذلك قال أن المستعمَر "مدعو بعد التحرير الوطني لمحاربة الفقر والأمية والتخلف وهو نضال مستمر، وهنا سيدرك الشعب أن الحياة نضال لا ينقطع، وما يوحد الشعب هو عنف المستعمِر، فالاستعمار بحكم بنيته مفرق ومشتت، فهو لا يكتفي بإدراك وجود القبلية إنه يدعمها" (Fanon, F.1970 ;p51).

ــ الآخر ليس هو المستعمر فحسب بل يمكن أن يكون ذلك الذي تتعارض مصالحه الخاصة والمصلحة الوطنية ، ومن هنا نجده يحذر الشعوب من النخب الوطنية، خاصة النخب الحاكمة التي ترتدي الاقنعة البيضاء، وتكرّر وتكرس آليات المستعمر، فعلى الجماهير "أن تمنع أيّا كان لأن يصير "المحرر" فهي غيورة تحمي ثمار نضالها، وترفض وضع مصيرها ومصير الوطن بين يدي إله حي، تودع لامسؤوليتها السابقة لتفهم وتقرر كل شيء، إنّ العنف يجعلها واعية، ووعي الشعب يثور ضد كل تهدئة، وهذا ما يجعل أطماع الديماغوجيين والوصوليين والخرافيين صعبة التحقيق" ( Fanon, F.1970;p52).

ــ ويدرك كنخب أنّ مسؤولية النخبة الحاكمة هي إدراك ضرورة تحقيق عملية الانصهار الكامل مع رؤى وتطلعات الشعب "بخدمته، والانصات لصوته" (Fanon, F.1970;p96)، لأنّ العنف الفانوني يعني أيضا المثقفين الذين يحملهم مسؤولية العمل التوعوي (Fanon, F.1970;p115) الذي يسمح للشعب الوعي بضرورة محاربة الفئة البرجوازية النخبوية التي أوجدها المستعمر، لتحافظ على قواعده الإمبريالية، وتصير أداة طيعة تحافظ على مصالحه الخاصة، لذلك نجد فانون مناهضا لحكم النخبة.

وهو لذلك يعتبر العنف استثمارا بشريا يسهم فيه الجميع "الرجال والنساء الصغار، والكبار ينخرطون في هذا العمل الشاق لصالح الأمة، التضحية بالمصالح الشخصية وترك كل ما ليس في خدمة الجماعي هذا ما

يضمن راحة الإنسان وما يمنحه الثقة" (Fanon, F.1970;p57)، فبهذا يتمّ اعتراض طريق الانتهازي.

ـــــــ ويدرك كأحزاب وطنية أنّ "ما يسهل عملية التوعية، هي صرامة التنظيم، وعلوّ المستوى الإيديولوجي لقادته" (Fanon, F.1970;p 93)، وأنّ هذه الأحزاب إذ تتخذ قواعدها في المدن، فإنّها تسيء فعلا إذ تتجاهل بقية الفئات الشعبية قائلا "الخطأ كبير، وعيب معظم الأحزاب السياسية في المناطق المتخلفة كان، وفقا للمخطط الكلاسيكي، هو منح الأولوية للعناصر الاتصال الأكثر وعيا: البروليتاريا الحضرية، والحرفيين، والموظفين، وهو جزء من السكان يمثل ما يزيد قليلا على واحد في المئة (Fanon, F.1970;p 64).

**2.1.اشتغال على علاقة الذات|الآخر:**

يدعو **فانون** المستعمَر لأن يعيد النظر في صورة الآخر لديه، لإدراك أنّ حياته لا تقل قيمة عن حياة الجلاد، وأنه لا مبرر يجعل أحلامه وثقافته أعلى منزلة، ومن هنا يصير مفهوم العنف مرادفا لهزة معرفة نفسية تنزع عن المستعمِر هيبته، وتدمر أسلحته النفسية، وهذا ما سيمنح للمستعمَر أدوات تغيير واقعه الموضوعي، وبالتالي الخلاص من الاضطهاد، والاستغلال.

وتكون البداية بمحاسبة أوربا الاستعمارية، فهي مدينة لأفريقيا وللعالم الثالث بأسره بالشيء الكثير الذي ينبغي سداده، ففي اعتقاده أن ما تنعم به أوربا من رفاهية هو ثمرة لتراكم ثروات جمعت من عرق العبيد ونهبت من ثمار ومنتجات أرض "**السكان الأصليين**" للمستعمرات، فأوربا هي صنع العالم الثالث إذن، ومادام الأمر كذلك فـــ " إنّ السّكون المفروض على المستعمَر، لا يمكن إعادة النظر فيه، إلاّ إذا قرّر المستعمَر إعادة النظر في تاريخ الاستعمار، أي تاريخ النّهب لإقامة التاريخ الوطني، أي تاريخ تصفية الاستعمار"(Fanon, F.1970;p18).

ومن هنا يؤكد **فانون** لشعوب العالم الثالث ضرورة إيمانها بأنّ مطالبة الدول الغربية بمساعدتها على تحقيق **الاكتفاء الذاتي** هو حقّ شرعيّ،

ومطلب عادل، حيث يقول "وثمّة معرفة بين المستعمِر والمستَعمَر، ومن هنا يكون المستعمِر صادقا حينما يقول أنّه "يعرفهم"، فهو الذي صنع ولا يزال يصنع المستَعمَر، فحقيقة المستعمِر أي ثرواته هي وليدة النّظام الاستعماريّ (Fanon, F.1970;p6).

وهو يتخذ ممّا فعلته أوربا مع المانيا النازية نموذجا، فقد طالبت الحكومات الأوربية المختلفة ألمانيا بالتعويضات، وردّ المسروقات، فأموال وأعمال ثقافية وفنية كاللوحات والمنحوتات قد رُدّت لأصحابها، ولم يكن في فم أوربا غداة 1945 إلا جملة واحدة: ألمانيا ستدفع الثمن، وقد طلب **آدناور** M Adenauer بصفته مستشارا لألمانيا، وباسم الشعب الألماني العفو عن جرائم النازية"(Fanon, F.1970; p58).

إنّ مطالبة الشعوب باسترجاع ممتلكاتها، بداية طريق تصفية الاستعمار، لأن الشعوب التي تطالب بحقها تدرك أنها قوية بحقها، وصحة مواقفها (Fanon, F.1970; p61)، وحينما لا يتخاذل الشعب إلى أن يسترجع ثرواته، حينها هو شعب "بالغ، ومسؤول، وواع، وباختصار، فإنّ الشعب... قد استرجع ممتلكاته" (Fanon, F.1970;p129).

وفي الوقت ذاته الذي يجعل فيه **فانون** المستعمَر يعي حقوقه، ويطالب بها، يريد من المستعمِر أن يدرك واجبه، لأنه "لا نقبل أن تقدم للبلدان المتخلفة حسنات إذ يجب أن تكون هذه المساعدات تكريسا لوعي مزدوج، وعي المستعمَر بحقه، ووعي القوى الرأسمالية بوجوب التعويض" (Fanon, F.1970;p59/ 60).

و**فانون** لا يؤمن كثيرا باستعداد الرأسمالية الامبريالية للتضامن، لذلك لا يكتفي بإثارة حسّ العدالة لديها، بل يحذّرها من ركود العالم الثالث، الذي سيؤدي بها الى غلق مصانعها بسبب الاختناق الرأسمالي، حيث قال أنّه لا مناص للحكومات الغربية من الاستجابة لهذا المطلب، إن شاءت الحفاظ على رفاهيتها، فقد تكهن **فانون** في حال الرفض بكون الاختناق مصير أوربا، فعدم استقرار المستعمرات فيه تهديد لمصالح أوربا، لأنه

يؤدي إلى عدم استثمار رؤوس الأموال، فإلى تكدسها في البنوك، وإلى توقف المعامل، والبطالة.

كما حذر **فانون** الشعوب من الانخداع بالتنازلات التي يقدمها المستعمر للمستعمر، والتي لا تمس جوهر مصالحه، فبعض التنازلات ليست إلا أقنعة للاستغلال، لأنها لا تمس جوهر الثقافة الاستعمارية، فالمستعمِر يتنازل بعد تضحيات مريرة على ما يمكن له الاستغناء عنه، فالاستقلال في حد ذاته ما هو إلا تخفيض للنفقات التي ينفقها المستعمر، وهو في الواقع إجراء إيجابي يسمح له بالحفاظ على كل إمكانيات القوة لديه، والشعب الذي لا يدرك هذه الحقيقة سرعان ما يدفع ثمن ذلك مزيدا من الهيمنة، فالمستعمرهو ذلك **"الذئب المفترس المترصد بكل شيء...والمستعمَرعرضة ليُنتزع منه السلاح عن طريق كل التنازلات وفي أي لحظة"** (Fanon, F.1970;p 88)، وبالانتصارعلى الثقافة الكولونيالية تكون تصفية الاستعمار، "وهكذا فإن المواجهة هي بين الكولونيالية وضدها، بل وبين الرأسمالية والاشتراكية "(Fanon, F.1970;p56).

## 2. تصفية الاستعمار:

لقد أدرك **فانون** أنّ الاستقلال أو التحرير الوطني غير كاف للتخلّص من آثار الامبريالية، لذلك دعا إلى مناهضتها عبر مفهوم "تصفية الاستعمار"، وهي عنده "عمليّة خلق إنسان جديد حقّا" (Fanon, F.1970;p6)، إنسان متحرر من الاحتقار الذي زرعه فيه المستعمِر "كي يتناغم مع وضع استعماري لا شفقة فيه...حيثما حلّ الاستعمار كان يلوث الإنسان حتى أصبحت تصفيته من رواسب الاستعمار أهم عمل ثوري في الثورة" (بن نبي، م.1988، ص52) وهذه العملية دائمة تستمر بعد الاستقلال، حيث يقول **فانون** "إنّنا على يقين أنّ تصفية الاستعمارهي مسار تاريخيّ، وهذا يعني أنّه لا يمكن إدراكها، ولا يمكنها أن تصير مطابقة لذاتها إلاّ حينما نعي الحركة التاريخية التي تمنحها شكلها ومحتواها" (Fanon, F.1970;p6) .

ومن هنا فإنّ "تصفية الاستعمار عمليّة لا تستمدّ شرعيّتها من قوّة غيبيّة ما، إنّ ما كان "شيئا" مستعمرا يصير إنسانا يتحقق بتحققها، ثمّة في عملّة تصفية الاستعمار إعادة نظر شاملة في الوضع الاستعماري، وتعريفها يتم بهذه الجملة "الأواخر يصيرون الاوائل" وتصفية الاستعمار هي اختبار لهذه الجملة (Fanon, F.1970;p6) فمحو الاستعمار يحمل إلى الوجود إنسانية جديدة يجيء بها بشر جدد، بشر ما بعد الاستعمار.

**المراجع:**


1ـ بن نبي، مالك. شروط النهضة، الطبعة الرابعة 1987، دمشق، دار الفكر.

2ـ بن نبي، مالك. بين الرشاد و التيه، ترجمة عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين،الطبعة الثانية 1988، دمشق، دار الفكر.

3- Fanon, Frantz. Peau noire masques blancs, 1952, paris, Seuil.

4- Fanon, Frantz. Les damnés de la terre, 1970, paris, Maspero .

5- Mannoni, Octave. Psychologie de la colonisation, 1re éd.1950, Éditions Universitaires, Paris.

6- Carothers, John Colin. Psychologie normale et pathologique de l’Africain. Étude ethno-psychiatrique. Traduit par Henri Aubin, 1954, OMS. Genève.